لمحة عن الاختبارات النفسية و أنواعها و أهميتها العيادية

تمهيد

تحتل الاختبارات النفسية و المقاييس مكانة أساسية في عمل المختص النفسي العيادي حيث اعتبرها Lagache (1949) من اهم ادوات البحث في علم النفس العيادي و التي اطلق على هذه الأخيرة « clinique armée » او العيادية المسلحة اي علم النفس العيادي المجهز و المزود بأدوات البحث.

تندرج الاختبارات النفسية في اطار الفحص النفسي عند الراشد و المراهق و الطفل حيث يلجأ اليها المختص النفسي بهدف فهم شخصية المفحوص (الروشاخ مثلا)أو قياس خاصية معينة (الذكاء) أو أداة مهينة أو اضطراب معين (سلم بيك أو هاملتون لتشخيص الاكتئاب) و الوصول في أخر الأمر الى اتخاذ قرار يحدد طبيعة التكفل العلاجي للمفحوص. و منه فإن تطبيق هذه الأدوات في الفحص يخضع الى شروط و معايير حيث أنه لا مجال للصدفة والارتجال فيها.

1- مدخل تاريخي للاختبارات النفسية

تميز ظهور الاختبارات النفسية عبر التاريخ بارتباطها بمجموعة من المختصين و المدارس (الألمانية و الأنجلزية و الفرنسية و الولايات المتحدة الأمريكية) خاصة في نهاية القرن التاسع عشر بعد بروز مظاهر التجريب في علم النفس عند Wundt في المانيا و تلامذته.

كان يرى Galton في انجلترا صاحب مخبر Anthropometric ان الذكاء تنقل عن طريق الحواس حيث تستطيع التمييز بين الصفات و الخصائص و منه قام ببناء اختبارات قياس حدة الحواس مثل حدة الصوت ، زمن رد الفعل و تقيس كذلك السمات الموروثة كما انه اول من اجرى اختبار على اطفال المدارس نظرا لسهولة الوصول اليهم.

و قد فند هذه الطريقة احد تلاميذ Galton يسمى James McKeen Cattell (1890)الذي انتبه الى الفروق الفردية التي تميز الأفراد الذين تجرى عليهم التجارب و اكد على ثبات هذه الفروق. يعتبر Cattell أول من استعمل مصطلح الاختبار العقلي (Mental Test) سنة 1890. ارتكزت اختبارات هذا الأخير التي كانت موجهة الى الطلبة و الأطفال الى قياس العمليات الحسية و الإدراكية و قياس رد فعل المفحوص اليها و الوقت المستغرق....الخ بالرغم من انه وافق على اعتبار ان قياس القدرات العقلية يكون عن طريق قياس القدرات الحسية و رد الفعل إلا انه لم يقر بان اختباراته تقيس الذكاء.

كما ظهرت خلال هذه الفترة اختبارات لقياس الذاكرة نذكر منها اختبار فرعي يشمل قياس الذاكرة و المفردات Munsterberg (1891) و اختبار «Closure "لي Ebbinghaus (1897).

لم تعمر اختبارات كاتل طويلا و وجهت لها انتقادات كثيرة نذكر منها التجربة التي قام بها Wissler (1901) الذي طبق الاختبار على الطلبة في جامعة كولومبيا و توصل ان نتائج الطلبة كانت مختلفة من اختبار فرعي الى اخر ، كما انه لا يوجد ارتباط بين اجزاء الاختبار بالإضافة الى عدم توافق نتائج الطلبة في الاختبار و تحصيلهم الجامعي.

كما انتقد بينيه كذلك اعمال و اختبارات كاتل حيث اعتبر ان الفروق الحسية بين الأفراد لا تتدخل و لا تأثر في القدرات العقلية و الذكائية خاصة. بالنسبة لبينيه يشمل الذكاء على مجموعة من الاستعدادات المختلفة و المرتبطة بقدرات نفسية مثل الانتباه ، الذاكرة ، التجريد ، الخيال....الخ و عرف الذكاء على انه " اصدار احكام جيدة ، الفهم الجيد و التفكير الجيد".

وعلى هذا الأساس اتجه رفقة زميله سيمون الى تصميم وبناء اختبار يقيس القدرات العقلية عند الأطفال سنة 1905 بالاعتماد على تقييم مختلف الخصائص نذكر منها الذاكرة، التفكير، بناء الأحكام....الخ من خلال 30 وضعية متدرجة الصعوبة .ان ما يميز هذا الاختبار هو اعتماده على مراحل النمو من جهة و العمر العقلي من جهة اخرى و نجاعتها في الكشف على التخلف العقلي. للتذكير فان بينيه استعمل كلمة المستوى العقلي للتعبير عن العمر العقلي الذي يشير الى نتيجة الطفل في الاختبار مقارنة بمتوسط نتائج الأطفال من اعمار مختلفة.

لقد ظهرت ثلاثة نسخ من اختبار بينيه : 1905، 1908 و 1911 كما تم تكييفه في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1909 و ظهرت النسخة الثانية تحت اسم " Terman Stanford" سنة 1916.

يعتبر Stern (1912) اول من استعمل مصطلح حاصل الذكاء الذي يحسب كمايلي: العمر العقلي قسمة العمر الزمني.

في هذه الفترة اهتم سبيرمان بالقدرات العقلية و الذكاء من خلال دراسة الارتباط بين العديد من الاختبارات الحسية البسيطة و توصل في النهاية الى القول ان القدرات العقلية تمثل نتاج لعامل عقلي عام حيث ان كل جزء من الاختبار يقيس عامل خاص و لكن يقيس كذلك عامل عام يشمل الاختبار ككل .
اقترح سيبيرمان وجود عاملين : عامل عام و عامل خاص . بالنسبة له يمثل العامل العام G طاقة عقلية حيث اعتبره سيرورة استنتاج العلاقات أي الكشف عن العلاقة التي تربط بين بندين او شيئين....الخ

تعرضت مقاربة سبيرمان للذكاء العام الى انتقادات كثيرة خاصة من طرف Thurstone الذي اعتبر ان نظرية العامل العام متغيرة بتغير طبيعة الاختبارات .تطرق Thurstone الى مصطلح الاستعدادات الأولية في نهاية الثلاثينات و نشر اختباره سنة 1938 (اختبار قياس الاستعدادات الأولية) حيث توصل بعد تحليل درجة ارتباط لمجموعة من الاختبارات الى تحديد مجموعة من الاستعدادات الأولية : الفهم اللفظي، السيولة اللفظية ، الاستعداد الرقمي، الاستنتاج ، الاستعداد الفضائي ، السرعة الإدراكية و الذاكرة. تشكل مقاربتي سبيرمان و Thurstone اهم المقاربات التي اقترحت نظريات في ماهية الذكاء.

انتشر استعمال الاختبارات النفسية و خاصة التي تهدف الى قياس الذكاء نظرا لعدة عوامل منها العوامل الاقتصادية و تعليمية (أعادة النظر في برامج التعليم و تحسين المستوى من خلال الكشف عن التخلف العقلي و كذلك الأطفال الأذكياء) و التوجيه المهني كما تم استعمالها في البحث عن الكفاءات و المهارات في مختلف المجالات و منها المجال العسكري الذي تبلور خاصة خلال الحرب العالمية الثانية اين استعمل الجيش الأمريكي اختبار ويكسلر لقياس الذكاء عند الراشدين الذي صدر في سنة 1939

(Wechsler-Bellevue scale) على الجنود.

كما نشر ويكسلر 10 سنوات بعد ذلك اختبارا لقياس الذكاء عند الأطفال و اختبار اخر لقياس الذكاء عند الأطفال ما قبل المدرسي سنة 1967. تعدد اصدار الاختبارات في هذه الفترة حيث ظهر اختبارRaven سنة 1938 لقياس الذكاء بالإضافة الى اختبارات Cattell سنة 1940.

ان ظهور اعمال Piaget و اهتمامه بالنمو المعرفي عند الطفل جعل الكثير من المختصين يتوقعون ظهور اختبارات تقيس الذكاء مصممة انطلاقا من نظرية بياجي و التي ظهرت بصورة فعلية في نهاية الستينيات من القرن الماضي على يد Longeot بسلم تطور التفكير المنطقي Echelle de développement de la pensée logique (EDPL) بالأضافة الى اختبار UDN II الذي صمه كل من Claire Meljac و Gilles Lemel سنة 1980 و تم مراجعته سنة 1999.

ان ما يميز الاختبارات المستنبطة عن نظرية Piaget النقاط التالية:

-يرتبط المستوى المعرفي لفرد معين بالمرحلة العمرية التي ينتمي اليها و ليس بنتائج عينة الاختبار (المعايرة).

-تأويل النتائج مرتبط بجوانب نظرية تطرق اليها بياجي في نظريته.

-بنود الاختبار مبنية بصورة هرمية .

فيما يخص اختبارات قياس الشخصية فتعتبر قائمة لقياس الشخصية (Personal Data Sheet) الذي صممه Woodworth سنة1914 اول سلم لقياس الشخصية الذي استعمل في الجيش بهدف الكشف عن الشخصية العصابية عند المترشحين الجنود و الذي يمنع تجنيدهم. و تلى هذه القائمة اختبار الروشاخ الذي يعتبرا ول اختبار اسقاطي صدر سنة 1920 على يد هرمان روشاخ. و توالت الاختبارات قياس الشخصية حيث نشر Strong قائمته التي اطلق عليها (Strong vocational interest blank inventory) سنة 1927 و ظهر اختبار تفهم الموضوع (TAT) الذي وضعه Murray سنة 1935 و بعد 4 سنوات تم اصدار اختبار مينوسوتا متعدد الأوجه لقياس الشخصية (Minnesota Multiphasic Personality Inventory) (MMPI) 1943 من طرف Hathaway و McKinley و كل هذه الاختبارات و القوائم كانت موجهة للراشدين و هذا ما جعل المختصون يحاولون تصميم اختبارات اسقاطية تكون موجهة للأطفال و هذا ما فعله Corman بإصداره اختبار القدم السوداء سنة 1959. كما نشر كاتل بالاعتماد على طريقة التحليل العاملي سلم لقياس الشخصية " عامل الشخصية 16" (16PF).

كما قام المختصون باستعمال اختبارات ادائية لقياس الشخصية حيث يوضع الشخص في وضعية معينة و يطلب منه القيام بنشاط معين و منها اختبارات Hartshorne و May في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي.

ان ظهور و تطور نظريات جديدة في علم النفس و العلوم الأخرى خاصة علم النفس العصبي و علم النفس المعرفي سمح بظهور اختبارات تقيس وظائف مختلفة و منه تم يناء اختبارات نذكر منها على سبيل المثال اختبار كوفمان لقياس الذكاء عند الأطفال الذي صدر سنة 1983 أما النسخة الثانية فظهرت سنة 2004.

2-تعريف الاختبارات النفسية

يقصد بالاختبار لغة المحك او العملية التي يتم استعمالها بهدف التوصل الى حقائق معينة او تحديد معايير الصواب او الدقة. كما يشير ايضا الى انه مقياس يسمح بالحصول على بيانات كمية نتيجة تقييم شيء معين.

اما اصطلاحا تطرق العديد من المختصين الى تعريف الاختبارات النفسية حيث عرفته Anastasi (1976، ص23) بأنه " القياس الموضوعي و المقنن لعينة من السلوك.."

اما Zazzo (1960) فعرف الاختبار بأنه " تجربة (وضعية) معرفة (مقننة) بصورة دقيقة فيما يخص شروط تطبيقها وكيفية تصحيحها حيث تسمح بمقارنة الفرد مع مجتمع محدد من الناحية البيولوجية و الاجتماعية " (1967 Cambon)

يشير تعريف Zazzo هنا الى ان الاختبار وضعية واضحة المعالم في اجراءها و تصحيحها المحصل عليها من طرف المفحوص و مقارنتها بأقرانه وفق معايير محددة و معرفة.

يذهب بنا تعريف Zazzo الى ما يطلق عليه بتقنين الاختبارات الذي يرتبط بشرطيين رئيسين :

-تماثل و تجانس كل معايير تطبيق و اجراء الاختبارات و تصحيحها و تفسير نتائجها. و تضيف Anastasi انه يجب ان تكون مستقلة عن شخص المختص النفسي بحيث يمكن للمفحوص ان يتحصل على نفس النتيجة في نفس الاختبار مهما اختلف المختص النفسي.
- تقييم النتائج بالمعايير عن طريق عملية المعايرة اي يتم مقارنة نتيجة مفحوص مع النتائج المحصل من قبل العينة الممثلة للمجتمع الأصلي عند بناء الاختبار.
ان تقنين الاختبار يضفي عليه صفة الموضوعية .

3-تعريف بعض المصطلحات المستعملة

-البند (البنود)

و يقصد به المثير الذي يعرض على المفحوص و يمكن ان يكون على شكل عبارة او وضعية ...الخ

- السلم

يعرف مصطلح سلم في الاختبارات النفسية الى " مجموعة من البنود المرتبطة بمتغير واحد و يتم تصنيفها و ترتيبها وفق معيار الصعوبة او الشدة"

- بطارية الاختبارات او الروائز

و هي اختبارات تشمل مجموعة من الاختبارات الفرعية التي تقيس ابعاد متعددة و تجرى مع شخص واحد في نفس الوقت.

4-تصنيف الاختبارات النفسية

صنف المختصون الاختبارات النفسية وفق عدة معايير مختلفة فمثلا تطرق Lagache الى نوعين من الاختبارات السيكومترية و الاختبارات العيادية ، حيث يقصد بالأولى الاختبارات المصممة بهدف قياس سمة او قدرة معينة اما الثانية فهي اختبارات دراسة الشخصية و التي تلعب دورا مهما في التشخيص

العيادي. كما صنفها اخرون حسب وظيفتها و اجراءها و طريقة اداءها ....الخ و لكن سنركز هنا على تصنيف Anastasi (1976) و Hogan (2017)

من جهتها صنفت Anastasi الاختبارات الى 3 فئات رئيسية مايلي:

1- اختبارات مستوى الذكاء العام و تضم الاختبارات التي تقيس الذكاء حيث نجد فيها الاختبارات الفردية و الاختبارات الجماعية بالإضافة الى الاختبارات الموجهة الى فئة خاصة كالأطفال في سن المدرسة او ألأطفال المصابين بإعاقة.

2-اختبارات القدرات الخاصة

حيث تضم الاختبارات التي تقيس قدرات متعددة حيث يتم اللجوء اليها لقياس مهارات المفحوص الحركية او الفضائية ....الخ و الاختبارات التي تستعمل في المجال التربوي (اختبارات التحصيل) و الاختبارات التي تستعمل في المجال المهني (مثل اختيار العمال او الملمح الخاص بمهنة معينة...الخ) و الاختبارات التي تستعمل في علم النفس العيادي (يستعمل المختص النفسي اختبارات متعددة منها ما يقيس الذكاء و منها ما يقيس سمات الشخصية و الوظائف المعرفية ...الخ)

3-اختبارات قياس الشخصية

و هي الاختبارات التي تهدف الى قياس شخصية المفحوص حيث تميز فيها Anastasi ثلاثة انواع و هي:

-قوائم التقرير الذاتي و تتضمن قوائم تهدف الى قياس الخصائص النفسية حيث تتميز بطبيعة صياغة الأسئلة و طبيعة الإجابة عنها و تصحيحها.

-مقاييس اهتمامات و اتجاهات الأفراد نحو موضوع معين و قيمهم حيث تشكل مظهر من شخصية الفرد.

-التقنيات الأسقاطية و فيها يتم استعمال الاختبارات الأسقاطية و هي وضعيات تشمل مثيرات غير مهيكلة بصورة دقيقة حيث تسمح للمفحوص بإسقاط عناصر شخصيته عليها مثل الروشاخ و اختبار تفهم الموضوع

و تضيف Anastasi نوعا اخيرا يتضمن تقنيات القياس الأخرى حيث يشمل الاختبارات الأدائية الموضوعية

-تصنيف Hogan

صنف Hogan (2017) الأختبارت النفسية الى 5 مجموعات رئيسية :

1-اختبارات قياس القدرات الذكائية

تهدف هذه الاختبارات الى قياس القدرات المعرفية بصفة عامة (الذاكرة، التفكير المنطقي....الخ) و الذكاء خاصة. و تتضمن على العديد من الاختبارات فردية منها و جماعية نذكر منها على سبيل المثال اختبار ويكسلر

2-اختبارات قياس التحصيل

و تشير الى قياس معارف الفرد و مهاراته قي مجال معين. و تشمل اختبارات فردية و جماعية خاصة.

3-اختبارات الشخصية

تشمل هذه المجموعة الاختبارات التي تقيس شخصية الفرد و تنقسم الى

الاختبارات الموضوعية و هي التي تشير الى موضوعية تصحيح للبنود المقترحة في الاختبار.

للتذكير يميز Hogan نوعين منها :

الاختبارات التي تقيس سمات سوية للشخصية مثل الاختبار متعدد الأوجه لقياس الشخصية مينوسوتا.

الاختبارات التي تستعمل كأدوات لقياس الاضطرابات المرضية مثل قائمة باك.

تضم المجموعة الثانية الاختبارات الأسقاطية مثل اختبار الروشاخ

4-قياس الاهتمامات و المواقف

و تتضمن خاصة الاختبارات التي تقيس الاهتمامات المهنية حيث تساعد المفحوص على التعرف على مختلف المهن مثل اختبار Strong

5-الاختبارات العصبية النفسية

و هي الاختبارات التي تقيس الوظائف المعرفية و يميز Hogan نوعين منها:

الاختبارات التي تقيس الوظائف المعرفية حيث تستعمل مع كل الأشخاص منها بطارية العصبية النفسية للوريا و الاختبارات التي يستطيع المختص النفسي ان يستعمل بعض من اختباراتها الفرعية لمفحوص معين.

5-شروط أجراء الاختبارات و المقاييس و تحليل نتائجها:

بعض المعايير و الشروط الواجب توفرها قبل اجراء الاختبارات و المقاييس:

لقد حرص الباحثون و المختصون على اقتراح منهجية واضحة يتبعها المختص النفسي بهدف تطبيق الاختبارات بصورة صحيحة و منها:

- دراسة و تحليل الطلب سواء تعلق الأمر بمؤسسة او اسرة المفحوص و مضمون الطلب و السياق الحالي له بالإضافة الى الرهان المرتبط بنتيجة تطبيق الاختبار بالنسبة للمفحوص و لأسرته .

- اختيار الاختبار أو المقياس المناسب للوضعية العيادية التي تواجه المختص النفسي لأن الاختبارات تقيس أبعاد مختلفة بصفة عامة حتى و لو تعلق الأمر بخاصية واحدة فمثلا اختبار قياس الذكاء الكثير منها تقيس أبعاد و أوجه مختلفة من الذكاء وليس نفس الذكاء كما أن الاختبارات ترتبط بنموذج نظري معين. اذا يجب أن يحدد المختص النفسي هدف و وظيفة اختبار ما أو مقياس ما في الوضعية العيادية.

- يجب على المختص النفسي أن يتأكد خاصة من تكييف هذا الاختبار أو هذا المقياس في المجتمع الذي يعيش فيه (المجتمع الجزائري في حالتنا). أي أن لا يتضمن الاختبار عناصر ثقافية و مجتمعية خاصة بالمجتمع مكان بناء الاختبار التي تخالف القيم الخاصة بالمجتمع الجزائري و بالتالي تؤثر على مصداقية الاختبار و نتائجه.

- ان تفسير و تأويل النتائج مرتبط بمجموعة من العوامل نذكر منها:

الاختبار و نتائجه مرتبطة بسياق معين من ظروف إجراء الاختبار و رهان نتائج الاختبار بالنسبة للمفحوص أو للآخرين. فمثلا اذا كانت نتائج الاختبار تحدد بصفة كبيرة منحى و مستقبل المفحوص و هذا ما يؤثر على اجراء الاختبار و كذلك نتائجه.

-ردود فعل المفحوص و كيفية تعامله مع بنود الاختبار و حالته النفسية خلال عملية التطبيق.

-أخطاء القياس التي توجد في جميع وسائل القياس خاصة في اختبارات قياس الذكاء و المقاييس.

-العلاقة بين المختص النفسي و المفحوص حيث أن طبيعة العلاقة تؤثر على سير الاختبار وكذلك نتائجه.

-قدرة المختص النفسي على تحليل النتائج مرتبطة بمعارفه ، قدرته على التفكير المنطقي و التفكير العيادي (خاصة في علم النفس المرضي) و تفادي خاصة البحث عن الفرضيات التي تؤكد النتائج المحصل عليها و الاستغناء عن تلك التي تتنافى معها. أنه من الضروري أن تحليل النتائج و تفسيرها تكون على ضوء السير النفسي العام بالنسبة لمفحوص.

و منه لا يجب حصر المفحوص في نتائج الاختبار و هذا ما يتطلب تكوين و خبرة في تطبيق الاختبارات و المقاييس عند المختص النفسي ، في طريقة تطبيقها ، تحليل النتائج بالإضافة الى عرضها للمفحوص.

6-المراحل الضرورية لتطبيق الاختبارات و المقاييس:

أولا و قبل كل شيء يجب على المختص النفسي أن يوفر كل الشروط المادية التي تساعد الفحوص في اجراء الاختبار بصفة عامة و بالتالي تعطي صفة الصدق الى النتائج المحصل عليها.

من الناحية المادية يقوم المختص النفسي بتوفير قاعة مناسبة تتوفر على الهدوء و الإضاءة المناسبة و الأثاث المناسب...الخ

ان تطبيق هذه الاختبارات يتضمن توفير مراحل زمنية مهمة تسمح بتحقيق أهداف الاختبار نذكر منها:

1-6 مرحلة ما قبل الاختبار:

في هذه المرحلة يحدد المختص النفسي كما قلنا سابقا أهداف الاختبار و فائدته في مواجهة الوضعية العيادية: هل يتعلق الأمر بوضع تشخيص معين؟ هل يسمح الاختبار باقتراح اتجاه علاجي ؟ ...الخ يجب على المختص النفسي أن يحدد بصورة واضحة فائدة اختبار معين لمفحوص معين. كما يجب عليه كذلك أن يحلل الطلب المقدم اليه من طرف الغير(مؤسسة ، مستشفى ، زملاء المهنة...الخ) بهدف إجراء اختبار معين لمفحوص معين والخوض في كل الرهانات المرتبطة بالاختبار بالنسبة للمفحوص و بالنسبة للغير، لأن اجابات المفحوص تتأثر بها.

بعد ذلك يشرح المختص النفسي أهداف الاختبار(لأن المفحوص يظن أن لما يجري اختبار معين فهذا يتعلق بقياس قدرة معينة ، مهارة...الخ)، طبيعة الاختبار و خصائصه (هل يتعلق الأمر ببطاقات ، صور، أسئلة...الخ) و سيرورته له (مكان و كيفية تطبيقه و عدد الحصص اللازمة.الخ)

لا يجري المختص النفسي الاختبار مباشرة (خاصة الإسقاطية منها) مع المفحوص حيث يجب بناء العلاقة معه من أجل تخفيض القلق و تهيئته لأجرائه.

2-6 مرحلة إجراء الاختبار:

يوفر المختص النفسي كل الظروف لكي يتم إجراء الاختبار بكل حرية و أمان. كما يجري الاختبار وفق المعايير التي يوصي بها فيه. كما يجب احترام رغبة المفحوص في المواصلة فيه أو التوقف عن مواصلة اجراءه. بعد نهاية الاختبار يشكر المختص النفسي المفحوص على اجراء الاختبار و يحدد معه موعدا لمقابلة تقديم نتائج الاختبار.

3-6 مرحلة اخبار المفحوص بنتائج الاختبار:

من الضروري أن يقوم المختص النفسي بإخبار المفحوص بنتائج الاختبار (و ليس بروتوكول الاختبار) وكذلك للغير (أصحاب الطلب) بالرغم من عدم اتفاق المختصين على ذلك. يجب على المختص النفسي

أن يعقد مقابلة مع المفحوص من أجل توضيح نتائج الاختبار باستعمال خطاب بسيط يكون في متناول فهم المفحوص و احترام حريته في قبولها أو رفضها، لأنه حسب Azoulayيجب أن يواجه المختص النفسي المفحوص باشكاليته النفسية التي تظهر من خلال الاختبار لأنه و ببساطة المفحوص يعرفها و بالتالي عدم اخباره بها يعني انكار معاناته. ان هذه المقابلات تعطي الأولوية للعلاقة مع المفحوص و منه يجب على المختص النفسي أن يظهر تعاطفا مع المفحوص و أن يتطرق بصورة خاصة الى الجوانب الايجابية التي تساعده في عمله و كذلك الجوانب السلبية و يطلب من المفحوص رأيه فيها.